بيار بورديو مدافعا عن التعايش والاختلاف في ظل النظام العالمي الجديد

أ. كلتوم بن عبد الرحمن
د.فارح مسرحي
.جامعة باتنة 1

ملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل عدة مفاهيم جديدة في فلسفة بيار بورديو الذي دافع بشدة عن التعايش والاختلاف في ظل النظام العالمي الراهن من جهة وحضارة العولمة الجديدة التي أصبحت مفروضة على المجتمعات البشرية من جهة أخرى.

وهذا البحث يقتصر على ثلاث نقاط أساسية في فكر بورديو تتمثل فيما يلي: موقف بورديو من مفهومي العولمة والليبرالية الجديدة، النضال والالتزام من أهم المبادئ الأساسية تجاه المسؤولية الاجتماعية في فلسفة بورديو، نحو منظور جديد للسوسيولوجيا الجديدة في ظل التعايش و الإختلاف في فلسفة بورديو. ومن خلال هذا البحث في فلسفة بورديو تبيّن بأن الانتقادات التي وجهت إليه من قبل الفلاسفة عامة وعلماء الاجتماع بخاصة لم تستوعب أفكاره الفلسفية التي تدافع عن التعايش السلمي والاختلاف المشروع في ظل النظام العالمي الجديد.

وعلى هذا الأساس، فإن هذه المحاولة المتواضعة تبيّن فلسفة بورديو ومواقفه تجاه القضايا المختلفة ومبادئه الأخلاقية والفردية والالتزام بفكرة الحرية السياسية عند المثقف تجاه المجتمع والسلطة.

Résumé :

Le but de cette étude est d'en analyser de nouveaux

concepts dans la philosophie de Pierre Bourdieu , qui a défendu avec conviction les idées de cohabitation et l'acceptation de l'autre

On se limite dans cette étude à trois principaux éléments dans la pensée de Bourdieu , à savoir :

1- L'avis de Bourdieu sur la mondialisations et le néo-libéralisme
2- Le militantisme et son soutien à la responsabilité sociale dans sa philosophie
3- Vers une nouvelle vision de la nouvelle sociologie au sein de la cohabitation et le droit à la différence dans sa philosophie .

Abstract :

No philosopher in all history has reached as large an audience in his lifetime as French writer, Pierre Bourdieu (1930-2002) Also, he was one of the most Versatile minds of our time. Indeed, he is not only a Philosopher but also a Sociologist, Novelist, and Politician (and an astonishing person)

What Follows is a discussions of Bourdieu's Philosophical writings and political activities on the defending Coexistence and difference under the New World order.

In this Study, it is stressed that Bourdieu's political writings are in favour of the struggle of the working class conflict not only because of his general thoughts of life but also because of his idea of freedom as his Principles and commitment of the intellectual.

Bourdieu's accont of the Concepts of globalization and neo-liberalism has been the Subject of many Critical discussions. However , in this article it is insisted that what is required is coexistence and difference in our globalized world.

Thus, I argue that Towards a New Perspective of Sociology in the Context of coexistence in Bourdieu's thought.

تمهيد

بيار بورديو أحد أبرز مثقفي هذا العصر بدون منازع، حضي بشهرة كونية منقطعة النظير شهدت له أعماله التي بنت له أفقا تأسيسيا لعلم اجتماع نقدي للحداثة من وجهة نظر أكاديمية، كان نموذجا يحتذى به للمثقف الملتزم، و هناك حتى من أطلق عليه لقب نبي علم الاجتماع المعاصر على الرغم من أنه كان يرفض هذا الوصف، جمع بين البحث الأكاديمي والنضال السياسي، فساهم في تدشين العديد من الحركات والجمعيات الاجتماعية عقب الاضطرابات و الإضرابات التي شهدتها فرنسا العام 1995.

الرجل كان مولعا بالعلم والمعرفة، لم يترك مجالا إلاً وطرق بابه، و من المنزل القبائلي ودراسة المجتمعات القبلية في الصحراء الجزائرية إلى دراسة المنظومات التربوية والدولة، والصحافة، والتأملات الباسكالية، و دراسة الانطولوجيا السياسية لمارتن هايدغر، وغيرها كثير، كل هذا الشغف المعرفي من أجل إحداث ثورة رمزية تبني المعنى، و تقدم رؤية جديدة للعالم الاجتماعي.

كان بورديو فيلسوفا بنظرنا أكثر من عالم اجتماع لأنه قدم إضافات للفلسفة على المستوى المفاهيمي والتحليلي، فهو لا يزاحم أهل الفلسفة

بقدر ما يغني ويثري المجال الفلسفي، ومن بين طرق التفكير التي يفضلها هي طريقة التفكير مع أو ضد المفكر فمثلا درس مقولة المجال مع فيبر، وضد فيبر نفسه، ومنه جاز لنا أن نثير بعض التساؤلات :

بما أن بيار بورديو نموذج للمثقف الملتزم والمناضل فكيف بنا جنيالوجيا المقاومة لكل من العولمة والليبرالية الجديدة ؟ و ما هو الدور المنوط بعلم الاجتماع في نظر بورديو؟

1) موقف بورديو من العولمة والبيرالية الجديدة:

إذا أسلوب التفكير مع أو ضد بورديو يعني أننا نناقض راديكاليا المنطق التصنيفي الذي اعتاد الباحثون والناس وضع الفيلسوف فيه كأن نقول أن بورديو ماركسي التوجه، لكن لو تلقى بورديو هذا التصنيف لرفضه لأن هذا النوع من التخندق والتوجه الإيديولوجي يرفضه بورديو من منطلق أن التصنيف يجعل من المستحيل تجاوز التعارضات الزائفة، وهو منطق يدعو إلى العنصرية أكثر منه إلى الرؤية العلمية واضحة الأفق.

العولمة و الليبرالية الجديدة مفهومان بدأ يتسعان بشكل ملفت ورهيب، فلم يتركا مجالا أو فضاء إلاً ودخلا فيه ليفرضا قوتهما على هذا العالم الممتد، بمنطق تحركه نوازع السيطرة و الهيمنة، وبما أن بورديو عكف على كشف أشكال الهيمنة السياسية، والإيديولوجية عن طريق التحليل الرمزي للبنى الاجتماعية والأطر السلطوية كذلك و الإنتاجات الثقافية مبرزا كيفية إعادة إنتاجها وأساليب التبرير، و الإقناع بغية الوصول إلى الأهداف، و لهذه الأسباب اختار هذا العالم تعميق و تجذير انتمائه إلى يسار اليسار عبر تحوله الراديكالي في تسعينات القرن

الماضي نحو نقد الليبرالية الجديدة والعولمة معلنا عن بؤس العالم الراهن الذي يشهد نتائج كارثية على الإنسانية سببتها العولمة بسياستها، فقام بورديو بالاعتراض الصريح على فخها الذي تنصبه للبشرية و ما تحدثه من مخاطر بالمعمورة، و تلاعب بالعقول، و تغيب للحقيقة، تأسيسا لما سبق سنحاول طرح التساؤلات التالية: **ما هو مفهوم العولمة وما المقصود بالليبرالية الجديدة؟ و كيف قاوم بورديو هذه السلطة الجديدة التي أخذت تكتسح العالم بكل الإمكانيات و الوسائل؟ و هل يتم الإعتاق الاجتماعي والسياسي من سيطرة العولمة بالإصلاح الراديكالي أم بالثورة الدائمة؟**

سنعتمد في مقاربتنا هذه حوار أجرته المجلة الفرنسية دو فرانس (De France) العام 2000 في الكوليج دو فرانس كان موضوعها منصبا حول العولمة، و الهيمنة وآثارهما على الثقافة والاقتصاد ، لكن في البدء سنقوم بالتعريف المفهومين اولا .

من المعروف أن مفهوم العولمة ظهر إلى الوجود بعد انهيار الإتحاد السوفياتي وسقوط الثنائية القطبية، وانتصار الولايات المتحدة على النموذج الاشتراكي و بالتالي فرض الإيديولوجيا الليبرالية على العالم.

كما ارتبطت بالعديد من الأفكار والنظريات التي تتحدث عن النهايات، نهاية التاريخ، نهاية الإيديولوجيا، نهاية القوميات والدولة الوطنية ... فالعولمة بمثابة مآل للنهايات، وغايتها الاتجاه بالعالم من التنوع إلى الأحادية رغبة في بلوغ الحضارة العالمية الواحدة.[1] فالحديث عن العولمة

هو سعي الولايات المتحدة الأمريكية إلى غربلة وأمركة العالم وجعله يتماشى مع برنامجها السياسي والاقتصادي ومنه القضاء على الاختلاف والتعدد و بسط نموذج ذو بعد الواحد يختصر كل أساليب الحياة والعيش.

ومنه فمفهوم العولمة(Globalisation) ترجمة للكلمة الفرنسية (Mondialisation) التي تعني جعل العالم على مستوى عالمي، أي نقله من حدود المراقب إلى اللامحدود الذي ينئ عن كل مراقبة. و المحدود هو أساس الدولة القومية التي تتميز بحدود جغرافية وبمراقبة جمروكية صارمة... اللامحدود ويقصد به العالم، أي الكرة الأرضية فالعولمة إذن تتضمن معنى إلغاء حدود الدولة القومية في المجال الاقتصادي .[2] إذا انطلاقا من الترجمة التي نقلت المصطلح من اللغة الانجليزية إلى اللغة الفرنسية يتبين أن العالم متجه نحو توسيع الهيمنة الأمريكية، انطلاقا من مجال الاقتصاد إلى الدعوة إلى تبني إيديولوجيا تعكس هذه الرغبة في أمركة العالم أو بعبارة أخرى الاستعمار في طبعته الجديدة، كما يقول الجابري : «العولمة هي "ما بعد استعمار" باعتبار أن "الما بعد" في مثل هذه التعابير لا يعني القطيعة مع "الما قبل"، بل يعني الاستمرار فيه بصورة جديدة، كما نقول "ما بعد الحداثة"».[3]

والمستند الفكري والفلسفي الذي تقوم عليه العولمة هو المذهب الليبرالي الحديث أو ما يعرف بالليبرالية الجديدة (New Libéralisme) التي هي وجه أو امتداد إلى النظام الرأسمالي، وعليه فمفهومها حسب مؤسسيها كينز(*) :« دعم الفكر التقني و الإداري فيما يخص دور الدولة في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية، أو قد تعني فلسفة سياسية في إطار

فكر لوك و بيرك، كما يمكن اعتبارها إنفاق للديمقراطية الليبرالية أو تعني تحطيم هذه الديمقراطية تماما».[4] إذا يرتبط مصطلح الليبرالية الجديدة أكثر بالتجارة ورأس المال وبتنظيم الدولة للحقوق والقوانين المتعلقة بشأنيهما، وهي تتميز بحركة فتح الأسواق وتدخل بسيط للجهاز الحكومي، وتلعب الدولة في هذا النظام دور الشرطي الذي يوفر الحماية الأمنية، والبنية التحتية بحيث لا تتدخل إلاً بمقدار ما يكون ذلك التدخل ضروريا كأزمات الكساد، والتضخم، والاحتكار، إضافة إلى إلغائها بمعنى من المعاني للنظام الليبرالي القديم.

كما أنها نموذج اقتصادي شامل موظف من المؤسسات المالية العالمية الكبرى مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والمنظمة المالية للتجارة وتستخدم كمرادف للعولمة الاقتصادية بشكل خاص والعولمة بشكل عام .[5] إذن تتحرك العولمة وفقا لمستندات ومقولات الليبرالية الحديثة التي هي امتداد تاريخي للرأسمالية أو صورة لها.

أما الآن سنتوجه صوب بيار بورديو وبتحديد مع الأسئلة التي أجريت معه في الحوار ولنبدأ بمفهوم العولمة حسبه:«**كلمة عولمة نفسها خطيرة فكريا و سياسيا في نفس الآن، لأنها كلمة ملتبسة (Louche)جدا، يمكن فهمها كنوع من التوحيد، من الاندماج السلمي ولكن ما ننساه هو الاندماج غالبا هو – شرط للهيمنة** ».[6]العولمة في نظر بورديو تعبر عن إيديولوجيا ناعمة تزعم في الظاهر الهيمنة و الانتصار على الخطابات الإيديولوجية الأخرى ولكنها في

الباطن تخفي نزعة عنصرية منقحة، وعقيدة مدمرة تشكل خطرا على منظومة القيم الكونية، والإنجازات الإنسانية.

ويواصل القول أيضا حول الهدف من وراء التوحيد :

« **هذا الوهم التوحيدي يخفي فرض هيمنة امبريالية لأممية صغيرة من رجال المال تهيمن عليها – حاليا – الولايات المتحدة الأمريكية فالقوة الإيديولوجية للعولمة تكمن في كون الهيمنة تختفي وراء التوحيد** »[7].من وراء القناع الناعم لشعار التوحيد تتبع إرادة سيطرة لشرذمة من رجال الأعمال، يهدفون إلى تحقيق مصالحهم على حساب الدولة الأمة، ;السوق الوطنية، وحماية المهيمنين بفرض فلسفة الليبرالية الجديدة على كافة الدول، مما يؤمن نفوذهم السياسي والاقتصادي.

لقد أنجزت الليبرالية الجديدة بعد انهيار الإتحاد السوفياتي، وحرب الخليج، ثلاثة انتصارات أساسية: انتصرت على البديل الاشتراكي الذي ناهضها وصارعها منذ بداية هذا القرن تقريبا، وانتصرت على الليبرالية التقليدية، التي كانت تأخذ باقتصاد السوق دون أن تقيم القطع القائم بين الاجتماعي والاقتصادي، وعملت على تهميش البنى الجماعية سواء تمثلت في دول وطنية أو أحزاب سياسية ذات مشروع اجتماعي .[8] كما أن هذا الوضع ساهم في أفول، وتراجع دور الأحزاب السياسية ذات الطابع الدفاعي عن الحقوق الاجتماعية،و السياسية بعبارة أخرى كل الأنشطة السياسية المهتمة بقضايا الصالح العام .

وفي هذا السياق سأل الصحفي المحاور بورديو حول إمكانية توقع ظهور نموذج بديل لهذا النوع من الفكر المسيطر الأوحد المتمثل

في النيوليبرالية يجيب:« **قوة المدافعين عن النموذج المهيمن، هي أنهم يقدمون أنفسهم، كماسكين باحتكار الحقيقة على العالم الاجتماعي. وهذه إحدى نقاط قوتهم. و مع انهيار الأنظمة المسماة شيوعية، تضخم هذا الإحساس بالاحتكار إلى أقصى درجاته** ».[9]

يحذر بيار بورديو أولئك الذين يدعون أنهم أنبياء الإنسانية و أنهم الوحيدين الذين يملكون مفاتيح الخلاص، خاصة عقب انهيار الإتحاد السوفياتي كنظام يرمز فكره إلى العدالة الاجتماعية، لأن كل نموذج نبوئي في نظر بورديو يحيل إلى نتائج كارثية، فهو يرى – بالعودة إلى تاريخ إجراء الحوار – أنه لا يوجد بعد بديل حقيقي لمواجهة وتصدي معضلة الفكر الأوحد، إلاً أنه يشير لوجود حركات اجتماعية بدأت تظهر على الساحة الدولية حيث يقول:« **هناك وعي سياسي دولي بدأ يتشكل، مثلا في الحركة الاجتماعية الفرنسية، هناك اهتمام كبير بما يجري في كوريا الجنوبية. تشكلت شيئا فشيئا مجموعة تضم نقابيين ومسؤولي جمعيات أوروبية فيما يشبه نوع من الأممية، سنحاول عقد اجتماعات للحركة الاجتماعية العالمية من أجل بلورة استراتجيات العمل**»،[10]إذا على الرغم من تنامي وسيطرة فكر العولمة على الصعيد السياسي خاصة وأنها تقول بنهاية السياسة، وبالتالي زمن موضوعي مفرغ من التغيير والانحياز لطرف على حساب طرف آخر، فإن بورديو لا ينفي ولا يستبعد وجود وعي بدأ يتأسس في الأفق خاصة في وقت يصعب فيه تواجد فكر جديد أو إيديولوجيا بديلة تواجه النظام العالمي الجديد الذي كان نتاج عمل دؤب يعود إلى ثلاثينات القرن المنقضي، فالمسألة ليست سهلة ولكن يبقى الأمل موجود على مستوى المجتمع المدني، وما يحتوي

من جمعيات، وحركات تحاول أن تفرض نفسها برفضها للممارسات العشوائية، والمدمرة لليبرالية الجديدة والتي تضع الحياة الاجتماعية والدولة الوطنية في مأزق وجودي.

يعد بورديو الأب الروحي لحركات العولمة البديلة، ربما يمكن تشبيه الدور الذي مثله بالنسبة للحركات المناهضة للعولمة النيوليبرالية أو حركات العولمة البديلة كما تعرف حاليا بالدور الذي لعبه هربرتماركوز وتشي جيفارة بالنسبة لحركات الشباب التي هزت العالم عام 1968، إن تحليلاته النظرية عن الليبرالية الجديدة وما تمثله من خطر، وكشف للبنى وآليات التي تحكمها قد لعبت دون شك دورا أساسيا في بلورة الأفكار والشعارات التي تحملها هذه الحركات .[11] إذا أساليب بورديو في إظهار الوجه المخفي للعولمة يمثل مستند فكري لهكذا نوع من الحركات فدوره شبيه بدور القائد أو البطل الذي يوجه أتباعه نحو الأهداف التي ستساهم نوعا ما في تقويض الأساليب الرمزية لفخ العولمة.

يوجه بورديو من موقعه العلمي دعوة صريحة إلى الانخراط النقدي للمثقفين في مجابهة العولمة، فالخطر موجود و النتائج الكارثية ستحل آجلا أم عاجلا، لذا يلزم على الطبقة المثقفة أن تؤدي واجبها النقدي بأمانة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه، لأن بورديو يرى بأن اليد الخفية للعولمة ستطال كل أشكال المعرفة و العلم، و حتى البشرية.

إن ما يسميه بورديو "**بالمثقف الجمعي**" عبارة عن كيان يأخذ شكل جمعية أو منظمة تضم مختصين في مجالات متعددة مثل الاقتصاد

علماء الاجتماع، علماء الإثنولوجيا و المؤرخين إلخ ...الذين بدورهم يضعون كفاءاتهم العلمية في خدمة الحركات المناهضة للعولمة لتكون بمثابة أسلحة فكرية و عملية تسمح لهم بفهم مشاكل العالم الذي نعيش فيه بكل ما تتميز به من تعقيدات سواء كان ذلك في أفغانستان أو في فلسطين أو في العراق[12]. إنه نوع من النداء أو الرسالة يوجهها بورديو إلى المثقفين بوجوب توحيد الجهود وتضافر القدرات والكفاءات كل من باب تخصصه من أجل فهم وتفسير ما يحدث لتخطي الأزمات والمشاكل التي يمكن أن تحدث وهذا من أجل الصالح العام.

2- النظام والالتزام والمبادئ الأساسية للمسؤولية الإجتماعية في فلسفة بورديو:

فبيار بورديو لم ينخرط مؤخرا منذ سنوات التسعينات وحسب، بل مشهود له دائما بالعمل النضالي للمثقف الملتزم فطالما وجه له سؤال لماذا هذا الانخراط القوي في الحركات الاجتماعية النقدية النهج ليجيب :« **في الواقع كنت دائما ملتزما، ولكني حاولت دائما التعامل مع أشياء ساخنة بشكل بارد: حرب الجزائر أو الحركة الطلابية مثلا، ولكن إن كنت قد خرجت عن الدور التقليدي للمثقف واتخذت موقفا في المجال السياسي، فلأنني أرى أن الوضعية خطيرة جدا، وأننا نحن الباحثين، نفهم ونحس أشياء كثيرة لا يدركها العاديون** »،[13]يدرك بورديو جيدا خطورة الوضع لهذا يجد بأن المسألة الداعية للانخراط في صفوف الحركات المناوئة للعولمة أمر لابد منه، و ذلك لأن الرجل قد عهد على

نفسه الالتزام منذ أيام حرب الجزائر و الحركات الطلابية المصاحبة لأيار/مايو 1968.

ولأنه يتحدث انطلاقا من خبرته العلمية والمعرفية يجد أنه يجب التنبيه و نشر الوعي للناس العاديين، و تقديم صورة لهم لما سيؤول له الوضع من نتائج كارثية قد تضر بمصالحهم و الصالح العام، كأن يلحق الضرر بالاقتصاد الوطني للدولة الأمة أو كأن تدمر الدولة باعتبارها حاميا و مهتما بالشؤون العامة (الصحة ، التعليم ، الأمن ...إلخ) فابورديو يرى بأن الدولة هي الضامنة الوحيدة و الحامية لأفرادها من الآثار الوحشية للعولمة فيقول:

« **أعتقد أن الدولة الوطنية هي الآلية الوحيدة التي نتوفر عليها من أجل القيام بإعادة توزيع معقول لعائدات الأغنياء لفائدة الفقراء حتى نحقق تكافؤ الفرص في الوصول إلى الاقتصاد و إلى الثقافة و بالتالي لا يمكننا القول أننا سنتخلى عن الدولة في كل الأحوال**»،[14] العولمة تستهدف الدولة الوطنية إذا يجب حسب بورديو أن تبقى صامدة في وجهها لأنها هي المآل الوحيد للمحرومين فهي بالنسبة لهم الضامن لوجود حقوقهم والمحقق لخدماتهم ومنه مهما كانت الظروف لا يجب التخلي عن دفئ و نبل الدولة.

تجدر الإشارة إلى أن بيار بورديو قدم كتاب يتكون من جزئيين تحت عنوان : "**تارمضادة**" (Contre-feux) في كتابه هذا ينقد الليبرالية الجديدة، و حتى دولته فرنسا لم تسلم من مطرقته النقدية على اعتبار أنها قوة غربية و حتى السياسيين، و يؤكد على مفهوم جديد للمسؤولية

الجماعية و للمثقف ودوره السياسي، وتعريف جديد للفلسفة والفيلسوف، ويدافع عن ضرورة رجعة المثقف النقدي؛ إذ ليس ثمة ديمقراطية حقيقية دون سلطة نقدية –مضادة. كما ينتقد المثقفين غير المسؤولين و خاصة منهم المتعدِّدي الموضوع والشكل، كما يدافع عن الأجانب في فرنسا، كاشفا زيف العقلنة الغربية (الحق الذي اعتبرته الحداثة الغربية حكرا عليها لأن أهم مرتكزاتها العقل وخطاب العقلانية و احتكار العنف الشرعي)، كما يدين السياسة الاقتصادية للنظام العالمي الجديد داعيا إلى إنهاء تسلط خبرائها العاملين في البنك الدولي، ورفض البديل الجديد (منطق إما أو) لليبرالية أو بربرية، معتبرا الدولة الأمريكية دولة قمعية بوليسية، كما يشرح قوة الإيديولوجيا الليبرالية القائمة على إعادة بعث النص الدارويني بشكل منقح، فلولا (حسب بورديو) تواطؤ وسائل الإعلام و رجال السياسة و سذاجة الناس العاديين لما فرضت العولمة نفسها.

إذا نفهم أن بورديو قد تبنى موقفا نضاليا من العولمة، فهو يحمل دعوة إلى الثورة أو المقاومة؛ و موقفه هذا يختلف نسبيا عن مواقف بعض المثقفين منها، و لعلى السبب يعود إلى عمق إدراكه بحجم الكارثة التي ستظهر إما آجلا أو عاجلا، و إيمانا منه بالتغيير، لأن نهاية التاريخ في رأيه أسطورة أو أكذوبة من صناعة الميديا الأمريكية بامتياز.

لقد كان تكوين بيار بورديو العلمي في البدء فلسفيا، ثم توجه بعد ذلك صوب السوسيولوجيا، فدخل إلى عالم اليومي "**المعيش**" **(le vécu)** متخذا من الميدان أرضية صلبة لإنتاج مقاربات معرفية عميقة المعنى، و بهذا يقدم عدته النظرية المسلحة بالدليل السامع و الناظر

لصوت وصورة المشهد الاجتماعي، فالمعرفة في نظره لا تبنى داخل الأسوار العالية و الأبراج العاجية بعيدا عن صخب و فوضى المجتمع، بل يجب أن تنزل المعرفة من عليائها إلى الشارع و إلى فضاء الواقع وما يحمل من عوالم ماكروسكوبية و أخرى ميكروسكوبية، فبورديو نزل السوسيولوجيا من سماء الدراسات القابعة في المكاتب الفخمة والمكرسة من اجل دراسة الآخر بغية الهيمنة عليه إلى أرض الواقع المكتظ بالهم والبؤس الاجتماعي ومنه جاز لنا أن نصوغ الإشكاليات التالية:

ما هي الصياغة الجديدة التي قدمها بيار بورديوإلى علم الاجتماع "السوسيولوجيا"؟ و ما الذي يمكن أن تقدمه للإنسان باعتباره كائنا ذو أبعاد اجتماعية؟ وما المقصود بسوسيولوجياالسوسيولوجيا؟

3- نحو منظور جديد للسوسيولوجيا الجديدة في ظل التعايش والاختلاف في فلسفة بورديو:

يختلف بيار بورديو عن غيره من علماء الاجتماع في انه يمثّل رؤية جديدة في التحليل والفهم تستند إلى ربط ما هو ذاتي بما هو موضوعي، فمعه لا وجود لذاتية مستقلة عن الواقع الاجتماعي، والأمر نفسه بالنسبة للموضوعية فهي ليست قائمة بذاتها، والحقيقة بالنسبة لهذا الطرح هي مدار صراع وفي حالة تغير دائمة ومنه لا يمكن أن تفسر الحقيقية على أساس ذاتي دون أن ترتبط بالحقيقة الاجتماعية فهي جزء لا يتجزء منها، والتناقضات التي وقعت فيها النظريات و المفاهيم غير منفصلة عن التناقضات المبثوثة في الواقع الاجتماعي.

كما لا يهمل أو يتجاوز بورديو الذاتية وفاعليتها في أنها المعطى الذي يحرك الفاعلين الاجتماعيين و هي عنصر من الحقيقة إضافة إلى أنها منتجة للفعل والإبداع. كما أنها من تمنح للواقع المعنى وتصنع المفاهيم الجديدة وعليه فإن المفاهيم نسبية وغير ثابتة أو مطلقة.

أصبحت السوسيولوجيا مع بورديو عنوانا للمعرفة الملتزمة، تحمل رؤية نقدية جديدة تندرج في إطار علم الاجتماع المعاصر، يعمل على معرفة كيفية عمل المجموعات واستخدام القوانين التي تعمل وفقها، مرتكزا على الابستومولوجيا معطيا أدوات للفهم تسمح بالكشف على استراتجيات الهيمنة.

كما يوضح بورديو رفقة باحثين اثنين دور أو مهمة عالم الاجتماع الجديدة في النص التالي: «**يشكل علم اجتماع المعرفة الميدان الذي يؤمن لعالم الاجتماع أداة تقوي النقد المنهجي و تعطيه شكله المخصوص، خاصة و أن الغرض من هذا النقد يبقى كشف اللاواعي من المؤسسات، إلى تأجيل مهمة التقريب بين البحث التجريبي والنظرية بانتظار نهاية الحرب** »، [15]أصبح علم الاجتماع بمثابة مخبر يقدم أدوات تعزز عمل النقد لعالم الاجتماع، على اعتبار أن هذا الأخير يساهم في تعرية اللاوعي للأجهزة والممارسات الاجتماعية، وكذلك الفاعلين، و بالتالي إعلان نهاية الصراع بين الأعمال النظرية المجردة (التي كانت تطبع أعمال علم الاجتماع الكلاسيكي) و الإمبريقية.

فهناك حضور قوي لعلم الاجتماع المؤسس من قبل بورديو و الأعضاء المشتغلين معه خاصة بعد ستينات القرن المنصرم، لأنه ساهم في تبيان

الجوانب اللاواعية في المؤسسات المتخصصة كالمؤسسة التربوية، معززا حضوره (علم الاجتماع) في عالم الثقافة مما أدى إلى تحديث أساليبه المنهجية ليتماشى مع متطلبات الإنسان المعاصر.

فالأهمية التي أولاها بوردي حول علم الاجتماع في انه يساهم في المعرفة الذاتية للقوانين و بالتالي الحصول على قدر أكبر من الحرية في تغيير الواقع حسب تصوره فإن مهمته تتمثل في:« **نحن نعرف مقولة غاستون باشلار "ليس ثمة من علم إلاّ عن المخفي". وعالم الاجتماع هو الأفضل تسلحا للكشف عن هذا المخفي إذ أنه أفضل تسلحا علميا، ويستخدم على نحو أفضل رأسمال المفاهيم و المنهج، و التقنيات التي راكمها الذين سبقوه، كماركس و دوركهايم و فيبر و آخرون كثيرون** »،[16]فسوسيولوجيا بورديو أداة فعالة للنقد الجذري، و كشف للمضمر، و استنطاق للمسكوت عنه، و دوره يصبح فضح لآليات الهيمنة و ألعابها كالحقل الأدبي الذي يظهر على أنه مجال للإبداع و إنتاج للروائع الفنية لكن باطنه عكس ظاهره فهو مجال للسيطرة، والسعي لتحقيق المصالح والنفوذ والأرباح عن طريق تحصيل الجوائز المادية والمالية، و السبق نحو الظفر بالمجد والشهرة.

إن النقد الذي اكتسبه علم اجتماع بورديو يعود بالأساس إلى تراكمية رأسمال رمزي المتكون من مرجعيات فكرية متنوعة، متعمّدا فعل التوفيق بينها وجعلها أكثر نسقية و انسجاما.

و يصف بوردي المسعى الذي يجب أن تتجه صوبه السوسيولوجيا قائلا:« **إذا أرادت السوسيولوجيا أن تتخلى عن مرمى الميثولوجيات...**

ينبغي عليها أن تنكب على دراسة الصراع من أجل احتكار الفهم المشروع للميدان الاجتماعي بدل أن تحشر نفسها في ذلك الصراع، ذلك الصراع الذي يشكل بعدا من أبعاد جميع أنواع الصراع بين الفئات سواء أكانت فئات مقسمة حسب السن أو الجنس أو كانت طبقات اجتماعية »،[17]إن علم الاجتماع بصورة عامة وعلم اجتماع بورديو بصفة خاصة يعد مزعجا، فهو يثير مسألة علمية علم الاجتماع فعليه أن يخرج من عصر النظريات الكبرى والفكر الشمولي النبوئي المتعالي عن الواقع الاجتماعي، فموضوع السوسيولوجيا هو دراسة حقول التنافس والصراع والهيمنة، ليس على صعيد الطبقات فقط حتى في المجال العلمي، دون أن تنخرط في ذلك الصراع، ومنه فإن بورديو ينطلق من سوسيولوجيا نقدية صراعية أو مقاربة صراعية كما اقترح سوسيولوجيا للسوسيولوجيا كيف ذلك؟

عن طريق التنبيه إلى ضرورة حيادية عالم الاجتماع عندما يبحث في مشكلة اجتماعية ما أساسها أو محركها التنافس والصراع أو الهيمنة، وأن يكون مدركا وواعيا بموقعه الاجتماعي، و الثقافي ، والاقتصادي، ومن ثمة السوسيولوجيا الأصيلة هي سوسيولوجيا الكشف عن المسكوت عنه و المضمر وعليه فهيا تتميز بالطابع العلمي المنطقي، والابتعاد قدر الإمكان عن ما هو سياسي إيديولوجي، و دراسة أي موضوع تكون وفق مقاربة علمية موضوعية دقيقة وملتزمة. يقول في هذا السياق:

« **لا يمكن لعلم الاجتماع أن يقوم إلاً رفضا للطلب الاجتماعي الذي يلتمس وسائلا لإضفاء المشروعية أو أدوات للتحريض وعالم الاجتماع ليست له مهمة يسخر لها وغاية انتداب من أجلها، اللهم تلك التي يفرضها عليه منطق بحثه** »،[18]مهمة عالم الاجتماع هي إنتاج خطاب الحقيقة، دون أن يدعي امتلاكها أو يسعى إلى الاقتراب من السلطة من أجل الظفر بالمشروعية والاعتراف والغرق في سحر التفويض، ولا أن يكون محرضا للتمرد بل محللا لآليات التي تتحكم في البنيات الموضوعية للحقول الاجتماعية.

إذن ما من علم يصطدم في الجدل الاجتماعي على نحو ظاهر وجلي مثل السوسيولوجيا في رأي بيار بورديو، و هنا تكمن الصعوبة في إنتاج النص والخطاب العلمي ونقله إلى القراء والمهتمين و حتى الناس العادين يقول هنا:«**علم الاجتماع تخصص منقسم ، أقرب منه إلى الفلسفة من باقي العلوم الأخرى. بيد أن المشكلة لا تكمن هنا، إذ أن الجدل في مسألة علم الاجتماع يكمن في أنه يقض المضاجع** »،[19]علم يتميز بالخلخلة و التوتر وهو قريب جدا إلى الفلسفة باعتباره ورثى عنها الجدال والنقد، و يعزو بورديو قلة إنتاج علم اجتماع للحقيقة لأن ليس له مصلحة في إنتاج حقائق بعيدة عن جوهر الحقيقة فهي الأخرى مدار للصراع، فلا يوجد ميدان تصير فيه سلطة الخبراء أكثر خطرا و إفراطا كعلم الاجتماع، وهو من الحقول التي تواجه دون انقطاع مسألة علميته ويتعرض للاستجواب دون انقطاع (ينطلق من استجواب نفسه أولا ثم يتوجه إلى استجواب العلوم الأخرى) يقول في هذا المقام: «**لا يقوم علم الاجتماع، في الواقع إلاً بطرح أسئلة عن العلوم الأخرى، و هي أسئلة**

تطرح خاصة عليه بحدة كبرى.إذ كان علم الاجتماع علما نقديا، فربما لأنه هو نفسه في وضع حرج. إن علم الاجتماع يثير المشاكل كما يقال. نحن نعلم، على سبيل المثال، أنه اعتبر مسؤولاً عن الثورة الطلابية "في مايو/ أيار 68"»،[20] فعلم الاجتماع مكتوب له أن يكون نقديا وإلاً فقد علميته وجديته، يسعى إلى إزاحة المستور والمحجوب عن الأشياء؛ فهو يشكل الأوضاع إن جاز لنا التعبير التي تخفي واقع السيطرة فهو يعد أحد المساهمين الكبار في إحداث الثورة الطلابية.

ويبقى سؤال العلمية هو الأخطر عند بيار بورديو (التشكيك في علمية علم الاجتماع)، وتكمن صعوبته في أن موضوعاته محل صراع، وأشياء يخفيها القائمون بالتنازع وفي نفس الوقت تخضع للرقابة، وإلى جانب هذا كله بقاء علم الاجتماع محايدا مسألة نوعا ما صعبة وحساسة، ويؤكد بورديو على موضوع الصراع كمادة أساسية لاشتغال علم الاجتماع، الصراع بكل تمظهراته سواء أكان علميا، أو طبقيا،و سوسيولوجيا السوسيولوجيا هي الشرط المرهون لنجاح علمية علم الاجتماع و يؤكد أيضا: « ... **لكن السوسيولوجيا آخر ما أنحبت العلوم . علم نقدي لذاتها لعينها، و للعلوم الأخرى، وهي أيضا نقد للسلط من ضمنها سلط العلم. إن العلم أيًان كان يعمل على معرفة قوانين إنتاج العلم لا يمنح وسائل الهيمنة لكن لعله يمنح وسائل الهيمنة على الهيمنة»**،[21]لا يستبعد بورديو عمل علم الاجتماع بصفته تحرري و ضامن للديمقراطية و ربما حتى مهيمنا على الهيمنة بحد ذاتها وهذا هو المعنى الذي يصبو إليه نحو سوسيولوجيا محررة.

إذا نفهم أن عالم الاجتماع في سوسيولوجيا السوسيولوجيا يقدم أدوات للفهم الخاصة بكيفية اشتغال العالم الاجتماعي، ومنه يسمح هذا الفهم بتنوير إن جاز لنا التعبير عقول الفاعلين الاجتماعيين من أجل إحداث التغيير ضد كل أشكال السلطة (أحداث مايو 68 و1 إضرابات ديسمبر 95 في فرنسا)، ومنه علم اجتماع بورديو يناضل من أجل إحداث صحوة ، و يقظة ضد تثبيت الوضع سواء أكان سياسيا، أم اجتماعيا بعبارة أخرى يناضل ضد أشكال التعميم الذي يحول المصالح الفردية الخاصة في شكل مصلحة عامة، و لهذا فهو العلم المكروه من قبل بعض رجال الأعمال والدين و الصحافيين، لأنه يكشف الأسس الخفية لسيطرتهم التي تترك المجال للخطابات السطحية، و المستهلكة الخالية من المحايثة للواقع الاجتماعي.

النتيجة:

كانت حياة بيار بورديو الأكاديمية مشتغلة بتحليل علاقات الإنتاج و الرأسمال الرمزي للمؤسسات و الجماعات والأفراد، مركزا على الممارسات الرمزية داخل البناء المعقد للبنيات الاجتماعية، إلاّ أنه توجه في آخر حياته إلى النضال ضد الأشكال الجديدة من السلطة السياسية ،والاقتصادية، و الثقافية المتجسدة في ظاهرة العولمة، مناديا إلى ضرورة بقاء دفء الدولة، الذي يغطي و يحمي المجتمع المدني من انتهاكات الليبرالية الجديدة التي باتت تهدد بتفكيك الأشكال التقليدية القائمة في العلاقات الاجتماعية، و تسارع في زوال سحر الدولة.

ومع أن بورديو لم يتخلى عن أبحاثه العلمية و رصيده المعرفي السابق، الذي يعود إلى ستينيات القرن الماضي فإنه أصر في السنوات الأخيرة من حياته التوجه صوب العمل النضالي إدراكا ووعيا منه، منخرطا انخراطا فعالا في المشهد السياسي، و المشاركة النضالية مبديا التضامن العملي في الإضرابات، و الاعتصامات،وموجها نقدا شرسا للسياسيين، حيث عمل على إصدار البيانات ذات الخطاب الحماسي ضد سياسات الدول الأوربية بما فيهم بلده فرنسا ومنه سنذكر أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها عقب نهاية هذا المقال:

*- قدم بيار بورديو نمطا جديدا لعمل المثقف، وهذا من خلال توجهه إلى معاينة العالم المعيش، فاتحا باب الحوار مع البشر في ظروف حياتهم اليومية، وقراءة ظروفهم المعيشية على ضوء المنعطفات الاجتماعية و التجربة التاريخية لهم.

*- يستدل بورديو من تاريخ العلم حيث يؤكد أن السوسيولوجيا، هي آخر العلوم تشكلا ونضجا لذا يجب عليها أن تمارس النقد الداخلي من داخلها أولا، ثم تتوجه نحو العلوم الأخرى بالمساءلة و النقد وفق رؤية إبستمولوجية.

*- لقد اعترف لبيار بورديو الكثير من أهل الاختصاص وحتى منتقده، سواء من داخل المجال أو خارجه باعتباره كان مخلصا في تأدية رسالته المعرفية والأخلاقية بصورة نموذجية منقطعة النظير.

*-بما أن العولمة أصبحت نظاما مفروضا على الجميع دون استثناء فإنه يجب مواجهتها وتصدي لها بفهم منطقها أولا، ثم السعي

نحو بناء جنيالوجيا للمقاومة تحمي الثوابت مثل الهوية والمواطنة وتعزز دور الدولة الوطنية خاصة وأن هذه الأخيرة تعتبر احد أهم قلاع المقاومة للنظام النيوليبرالي الجديد.

قائمة المصادر والمراجع:

1–فارح مسرحي: التدين في زمن العولمة المشروعية والحق في الاختلاف (مستل من أعمال مؤتمر، لبنان، جامعة الروح القدس الكسليك) ،ص 155.

2- محمد عابد الجابري: قضايا في الفكر المعاصر (بيروت لبنان ، إعداد مركز دراسات الوحدة العربية ، الطبعة الأولى)، 1997، ص 136.

3- المرجع نفسه، ص 135.

(*)- جون ماينارد كينز: (1883-1946) مؤسس الليبرالية الجديدة التي انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى شبيه بليبراليين الكلاسيكيين لم يتطرق إلى استخدام الدولة كأداة لتطبيق العدالة الاجتماعية إذ راح يسوق لمعاملة الناس بأسلوب سيئ وغير منصف ولم يتطرق إلى كيف يعاملوا.أنظر تيرنس بول و ريتشارد بيللامى: موسوعة كمبريدج للتاريخ الفكر السياسي في القرن العشرين المجلد الأول، ترجمة: مي مقلد، مراجعة طلعت الشايب (القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، الطبعة الأولى ، 2009)، ص 77.

4- المرجع نفسه ، ص 78.

5- أنابيل موني و بتسيإيفانيز: العولمة المفاهيم الأساسية: ترجمة: آسيا دسوقي، مرجعة كل من: سمير كرم و زينب ساق الله (بيروت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، الطبعة الأولى، 2009)، ص 235.

6- بيار بورديو: العولمة والهيمنة: من المال إلى الثقافة / حوار برتراند شانغ، مجلة دو فرانس العدد 51، 2000، ترجمة وتقديم: محمد خيرات الإتحاد الاشتراكي 2012/10/25 ص 1.

8- المصدر نفسه ، ص 1.

7- بيار بورديو: بؤس العالم نهاية عالم الجزء الثاني، ترجمة سلمان حرفوش، عن التقديم فيصل درّاج (دمشق، دار كنعان، طبعة خاصة) ،2010، ص 7.

8- بيار بورديو: العولمة والهيمنة: من المال إلى الثقافة ، المصدر السابق، ص 1.

9- المصدر نفسه، ص 2.

10- بيار بورديو: التلفزيون و آليات التلاعب بالعقول، ترجمة وتقديم: درويش الحلوجي (دمشق، دار كنعان، الطبعة الأولى ، 2004)، ص 16.

11- المصدر نفسه ،ص 19.

12- بيار بورديو ، العولمة والهيمنة : من المال إلى الثقافة، مصدر سابق ، ص 3.

13- المصدرنفسه، ص 3.

14- ب- بورديو و ج.س-باسرون و ج.س-شامبردون: حرفة عالم الاجتماع ، ترجمة: نظير جاهل (بيروت لبنان، دار الحقيقة، الطبعة الأولى، 1993)، ص-ص 87-88.

15- بياربورديو : مسائل في علم الاجتماع، ترجمة: هناء صبحي (أبو ظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، الطبعة الأولى، 2012)، ص 34.

16- بيار بورديو : الرمز و السلط ، ترجمة عبد السلام بن عبد العالي، (الدار البيضاء، المغرب، دار توبقال للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة، 2007)، ص10.

17- المصدر نفسه، ص 18.

18- بيار بورديو: مسائل في علم الاجتماع، مصدر سابق، ص 29.

19- بيار بورديو : مسائل في علم الاجتماع ، المصدر نفسه ، ص- ص 29 - 30.

20- بيار بورديو : إعادة إنتاج، في سبيل نظرية عامة لنسق التعليم، ترجمة: ماهر تريمش (بيروت، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى 2007، ص 10.